اجتمع الناس لرؤيته، فكان في أحسن تعبية، قد ملأت العساكر الأرض كثرة، فسار أمامهم والعلام الأبيض قدامه مع الرجالة، على عادة الأمر العزيز من الترتيب في المشي، والعلامات والساقات والطبول وراءه، متربصاً في المشي وملتوياً فيه ليلحق الجمهور، ويتصل به من عسكره المنصور الصغير والكبير، وقد قدم أمامه مصحف صاحب[1] رسول الله ﷺ عثمان بن عفان رضي الله عنه على حمل مرتفع، وقدام هذا المصحف مصحف الإمام المهدي [2] رضي الله

(1) يعتبر ابن صاحب الصلاة من أبرز المصادر وأدقها وصفاً لمصحف عثمان بن عفان، وقد تحدث الشريف الإدريسي عن مصحف موجود بمسجد قرطبة فيه أوراق من مصحف عثمان بن عفان وهو المصحف الذي خطه بيمينه رضي الله عنه وفيه نقاط من دمه، وذكر ابن بشكوال أنه نقل من قرطبة أيام عبد المؤمن بن علي وبأمره وأكَّد ابن مرزوق أنه مصحف عثمان بن عفان باطباق أهل الأندلس، هذا وقد كان من خبر نقل المصحف العثماني من قرطبة إلى مراكش بعد أن كان أولاً بمسجد دمشق ما ذكره ابن رشيد في رحلته عن أبي زكرياء يحيى بن أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي عن كتاب جده الوزير أبي بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل المذكور قال: وصل إلى عبد المؤمن ابناه السيدان: أبو سعيد وأبو يعقوب من الأندلس وفي صحبتهما مصحف عثمان بن عفان فتلقَّى وصوله بالإجلال والإعظام، وقد تمنى عبد المؤمن في أعماق نفسه أن لو كان يملك هذا المصحف لكنه - وهو يقدر شعور القرطبيين إزاء المصحف - كان لا يفصح بذلك لكن الذي حدث أن أهل قرطبة قرروا بعد أن يتقدموا به هدية لعبد المؤمن.. وهكذا جمع الخليفة الصناع والمتقنين من سائر بلاد المغرب والأندلس من المهندسين والصواغين والنظامين، والجلائين النقاشين والزواقين والمرصعين والنجارين والرسامين المجلدين وعرفاءالبنائين... وصنع له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة، وحلاّه بأنواع اليواقيت وأصناف الأحجار الغريبة النوع، وقد حمله معه لأول مرة لزيارة قبر المهدي سنة 553، وقد استمر عند عند الموحدين إلى أيام المعتضد بالله: على بن ادريس بن يعقوب المنصور حين توجه لتلمسان سنة 645 حيث قتل ثم عثر بنو عبد الواد على المصحف وملكه بعد أبو الحسن المريني إلى أن كانت حادثة البحر سنة 750 فضاع في جملة ما ضاع من فرائد. وينقل الاستقصاء أن مصحف عثمان خلص لابن الأحمر الذي أهداه للسلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني سنة 692.
الإدريسي: نزهة المشتاق ص 210، العمري: مسالك الأبصار، تحقيق أحمد زكي باشا ص 195 - ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن مخطوط بالاسكوريال تحت رقم 1666 ورقة 113 - 116 (ب). النفح 2 - ص 135. الاستقصا ثاني 112 - 113 - 115 ثالث. هـ 75. كلمة للفقيه محمد التطواني بمناسبة عيد العرش 1947 ص 11 - 12 - 13.

(2) تنقل بعض المصادر أنه كتب بخط ابن تومرت وإنه دون مصحف عثمان في الجرم محلى بفضة مموّهة بالذهب. المعجب ص 253.

عنه وعلى مصحف عثمان كلة حمراء تصونه، والمصحف المكرم منظم حول حفاظه بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر، والأصفر، والأخضر الغريب، والزمرد الأخضر النفيس العجيب، قد جلبت أحجار الياقوت والزمرد والجوهر إلى الخليفة الأول الرضي خليفة المهدي، ثم لابنه أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين، ونظم بها حفاظ هذا المصحف المكرم، وكلَّل بها جوانبه إكليلاً، واتخذه من عثمان صاحباً وخليلاً، يتبرك به بكرة وأصيلاً، لم يتقدم إلى هذا الأثر الكريم أحدٌ قبله من الملوك، ولا انتهض أن يدخل نفسه في هذا الفن المسلوك. [302] فلقد حدثني عمر بن مرجى الإشبيلي[1] أحد الناظمين له أن فيه جوهرة تشبه حافر الفرس، وذكر لي أنه حدث أنها الجوهرة التي كانت عند أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون[2] صاحب مصر ودمشق وافريقية والزاب[3]، وأن الأيام وانتقال أحوالها وعجائب اقبالها لهذا الأمر العزيز، جَلبتْ ذلك إلى ملك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين. وقال: إن الذي حوالي جوانب حفاظ هذا المصحف المكرم من الذخائر لا يأتي عليها في القيمة عدد، ولا يأخذها عدد، وحين رأى الناس والنظارة ما ذكرته رأوا عجباً، وأمراً مغرباً، تيقنوا في ذلك دين الخليفة ويقينه من اهتباله، بكتاب الله تعالى واهتمامه به وعظيم اقباله، وكان مع الرايات والطبول التي تقدم ذكرها وزيره أبو العلى ادريس بن أبي اسحاق بن جامع، والشيخ الزاهد ابو محمد عبد

(1) لم أقف على ترجمته لكن أبن الأبار في التكملة (نشر العطار) ترجم لأبيه رقم 1847.

(2) هو الأمير خمارويه جحد أبناء ابن طولون الثلاثة والثلاثين كان ملكاً لمصر والشام بعد موت أبيه بمبايعة الجند له يوم الأحد العاشر من ذي القعدة سنة سبعين ومائتين، وقد توفي سنة اثنتين وثمانين ومائتين وقد كان معروفاً بتحفه النادرة سيما الجواهر التي خلفتها زوجته بوران.
ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ثالث طبعة دار الكتب المصرية صفحة 50 - 64.

(3) لم تذكر المصادر التي بين أيدينا أن ولاية أبي الجيش خماروية ابن أحمد ابن طولون امتدت عملياً إلى الزاب، وإنْ كُنَّا نعرف أن أخاه العباس له مواقف بمدينة (لبدة Leptis) التي توجد بين مدينة طرابلس ومدينة مصراته على الطريق الساحلي.
ابن تغري: - النجوم الزاهرة ثالث، صفحة 21. ابن خلدون، المجلد الرابع صفحة 645، الزاوي: - تاريخ الفتح في ليبيا.

الواحد بن عمر صاحب المهدي[1] رضي الله عنه، والشيخ ابو سعيد يخلف بن الحسين[2]، وأبـو محمـد عبـد الله بن ابي حفص بن تفـريجين[3]، ومن أولاد الجماعة أبو عبد الله[4] محمد بن أبي علي أزناق وأخوه أبو يحيى[5] وأبو محمد عبد الله المالقي شيخ طلبة الحضر، والقاضي أبو موسى عيسى بن عمـران[6] قاضي المحلة والجماعة. وعلى هذا الترتيب الشريف في الحركة السعيـدة، فنزل في ذلك اليوم أولاً [303] في إحدى دوره المتخـذة له على رسم والـده في النزول فيها بوادي تانسفت[7]، على نحو ثلاثـة أميال من حضـرة مراكش، وعسـاكره محـدقة بـه من كل جـانب، وكان السعـر[8] في هـذه الأيـام المحَلَّة المؤيدة في هذا اليـوم رخيصاً على تكـامل الخلق فيهـا، فالـدقيق: الربـع[9] الواحد منه بدرهمين، والشعيـر خمسة وعشـرون مداً[10] بدرهم! واللحم ستون

---

(1) راجع التعليق رقم 4 صفحة 324.

(2) راجع التعليق رقم 1 صفحة 180.

(3) الشيخ أبو حفص هذا من أهل تينمل، وتفريجين تكتب في (أخبار المهدي) هكذا (تفراكين).
أنظر البيذق 33 — 34 — 35.

(4) نجد هذا الإسم هنا كاملاً باسمه وكنيته ولقبه، ولذا نرجع أن ذكره في صفحة 22 تحت اسم عبـد الله وكنيته محمد خطأ مصدره التباس الذي وقع للناسخ بين هذا الشخص الذي استمـر ذكره مـع أخيه إلى هذا التاريخ 566، وبين الشيخ أبيْ محمد عبد الله بن أبي حفص بن عـلي الذي استشهـد منذ سنة 557 بمرج الرقاد.
راجع التعليق رقم 3 صفحة 93 والتعليق رقم 3 صفحة 120.

(5) راجع التعليق رقم 4 صفحة 93.

(6) كان قاضياً للجماعة بحضرة مـراكش، وقد كـان فريـد زمانـه ديناً وعلماً وأدبـاً، توفي في الخـامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وسبعين، ابن عذاري مخطوط 119.

(7) راجع التعليق رقم 1 صفحة 291.

(8) ولع ابن صاحب الصلاة بتتبع الأسعار طيلة تنقل الجيش، وهو انتباه هـام منه لنـاحية من نـواحي الحياة الاقتصادية في أثناء الظروف العَصِيبة، وكما فعل هذا هنا كان كأنـه كذلـك في غزوة وبْـذَة، وكذا في غزوة شنترين كما ينقل عنه ابن عذاري، انظر البيان المغرب ص 128.

(9) الرُّبُع (ج أرباع) ـ كما ورد في الكتب التي تنـاولت الحديث عن الحسبـة ـ يزن 25 رطـلاً، والرطـل يساوي تقريباً 504 كرام بالوزن الحالي فالربع إذن يزن أثني عشر كيلو وستمائة كرام.
Colin et Lévi Provençal: un Hispanique de Hisba. Paris. page 27.

(10) لم يعين ابن صاحب الصلاة هل القصد إلى المد النبوي أو إلى مد اصطلاحي، وبتتبع كلامه الآتي =

أوقيـة[1] بدرهم، وأمـر لأهل المسـائل بقضـاء حاجـاتهم، والافضـال عليهم، وكتب الـظهائـر لهم، واتصلت المسـار، وارتفعت المضـار، والحمـد لله على ذلك، ورحل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين في جنـوده من وادي تانسفت يـوم الأحـد الخامس من رجب الفـرد المؤرخ، اليـوم الثـاني من حـركتـه، سـائـراً وجهته، متنقلاً في محلاته، فنزل في داره بدشر الحطابـة[2]، واحتلَّ فيهـا بمن حمـل من عيـالـه على رسم والـده الخليفـة رضي الله عنهم، ثم ارتحـل يـوم الاثنين إلى داره بتونين[3]، ثم الثلاثاء إلى توقـطين[4]، ينزل في كـل منزل في داره وعساكره محـدقةٌ بـه، ثم تابـع الحركـة والانتقال على هـذا الترتيب حتى

= نجد أنه دائماً ينعت المد بالمراكشي فلذلك نرجح أن القصد هنـا كذلـك إلى المد المـراكشي، ومعلوم أن المد النبوي يعادل 400 كرام إذا كان من الشَّعير، و: 525 إذا كـان من القمح، أمـا المد المـراكشي فهو بالقطع شيء غير المد النبوي.
راجع صفحة 354 — 367 — 269 — 511
الصبيحي: إنبلاج الفجر، عن السائل العشر، الرباط 1940 ص 24.

(1) ست عشرة أوقية تعادل رطلاً، وهكذا فإن ستين أوقية تعني تعني أربعـة أرطال إلا ربعـاً (أي كيلو و890 غرام).
Colin et Levi Provençal. un manuel Hispanique Page 27.

(2) دشر الحطابة: اسم لمكان اندثرت معالمه الآن، ويظهر إنه كان للخليفة هنا قصر، وإن والده عبـد المؤمن كـان يعتاد كـذلك النـزول في هذا المكـان، وقـد نقـل ويسي اللفظ بـالحـرف إلى الأحـرف اللاتينية. (Dasral — Hataba).

(3) تونين (Tunin) يذكر الإدريسي في نزهة المشتاق أن مدينة مراكش إلى مدينة سلا على ساحل البحر مراحل أولها تونين. . . ومن تونين إلى قرية تيقطين مرحلة ثم مرحلة ثم قـرية غفسيق ثم قـرية أم ربيع. . . ومن قرية أم ربيع إلى قرية إيجيبسل. . . ومن هذه إلى قرية إنقال ويقال لها دار المرابطين ومن انقال إلى قرية مكول. . . ومن مكول إلى قرية ايكسيس، ومن قرية ايكسيس إلى مدينة سلا وموضعها على ضفة نهر اسمير. . . ولم نستطع معرفة موقع تونين إلا أن ويسي يرجح أن تكون هي المكان المعروف حالياً باسم سيدي بو عثمان على بعد 35 كيلو متراً من شمال مراكش.
نزهة المشتاق ص 70.

(4) يـذكر الإدريسي كـما سلف أن المسافـة بين تـونين وتـوقطين مـرحلة. وهو يـرسمها كـذا (تيقطين) ويرسمها مخطوط ابن عذاري ص 124 (تـواقطين) ويعتقـد ويسي أن توقـطين هي البقعة المعـروفة تحت اسم «نزالت العدم» على بعد 23 كيلو ميتراً شمال تونين.

وصل وادي أم ربيع[1] وقد عقد عليه جسر[2] بقنطرة وثيقة من القوارب وآلات الخشب الماسكة لها في عباب الماء، فنزل في داره[3] المكرمة أيضاً على قرب من القنطرة المذكورة، وأمر لكلٍّ من الموحدين بيومٍ من الأيام، يجوزون فيه حذراً من الزحام، [304] فتغرق القنطرة المذكورة، فأجازوا عليها في أيام، وتزاحم العرب في الإجازة حتى تقاتلوا وقتل واحد منهم آخر، فعزموا على الفتنة بينهم، فارتفع الخبر إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوَدَاهُ من ماله، وسكنت فتنهُم، واحتل رضي الله عنه بداره بالجيسل[4]، فأمر بالمواساة من الشعير والدقيق واللحم عن زادٍ لجميع العساكر إلى أيام معلومة. ثم رحل عن هذا الموضع على الترتيب المذكور من المراحل المعلومة لأبيه رضي الله عنه حتى وصل داره بوادي وسنات[5] على مقربة من مكول[6] فأمر مرة ثانية بالمواساة من الشعير للعلف والدقيق واللحم للزّاد لجميع العساكر، وتمادى

(1) ينعت الشريف الإدريسي وادي أم الربيع على وقته بأنه كان كبيراً وإنه كان يجاز بالمراكب. ولكنه لم يردد صدى الدار المكرمة التي نزل بها الموحدون فلعلها لم تكن قبلهم. نزهة المشتاق ص 70.

(2) قد يوجد فرقٌ بين الجسر والقنطرة لدى الموحدين، فالجسر متنقل وفي الاستطاعة تفكيكه عند الحاجة وعلى العكس من ذلك القنطرة التي تظل ثابتة... ويقصد هنا بالجسر ـ كما يلوح من ثنايا النص ـ القنطرة الموقتة.

(3) لم نعثر على أثر موحدي في هذه الناحية اللهم «رباط تيط» الذي يبعد عن مدينة الجديدة بنحو إثني عشر كيلو متراً، فهل كانت الدار المكرمة في ناحية هذا الراط؟

Basset et Terrasse: Le Ribat de tit: Fes. TVII 1927p. 117.

العبدي الكانوني: آسفي وما إليه قديماً وحديثاً 1953 ص 44 — 45.

(4) ورد ذكرها لدى الشريف الإدريسي أيضاً وقد تردد الأستاذ دوزي ناشر النزهة في قراءة اسمها بين كلمة ايجيسل أو الجبيل أو ايغيسل، وهذا المكان هو الذي يعرف اليوم بالجيسير (Guisser) بالشاوية.

Ricard: Maroc, Guide Bleu 112 — 113. Huici page 248.

(5) ذكر هذا الوادي إلى جانب بعض الأمكنة التي ظلت هي الأخرى مجهولة، وكل ما نعلم عنه أن الإدريسي كما سلف ذكر بين قرية مكول مكاناً أسماه (انقال) ويقال لها دار المرابطين وإنه ذكر بعد مغيلة وادياً أسماه وادى وسنات.

(6) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 211.

مشيئه على ترتيبه حتى قرب من المهدية[1] المجاورة لمدينة سلى[2]. فنزل في موضع فصيح[3] من الأرض مع من تقدم ذكره من الوزراء والأشياخ من الموحدين والطلبة الكبراء، وأمر بإحضار أربع راياتٍ صغار، في أربعة رماح صغار، وفي أعلى كل رمح تفاحةٌ من ذهب تتلألأ ضياء وشعاعاً، والرايات ملونات بالخلدي[4] الأحمر، والأصفر والأبيض[5]، وجعل تلك الرايات الأربع

(1) مدينة المهدية يرادُ بها المدينة التي بناها عبد المؤمن منذ الأيام الأولى على مقربة من سلا وهي مدينة الرباط الحالية أو قصبة الودايا، وقد تُنوسي هذا الإسم التاريخي: (المهدية) اليوم كما تنوسي اسم المهدية «متاع ابن مليح». وقد سماها عبد المؤمن هكذا تيمناً باسم المهدي بن تومرت ولا يبعد أن يكون قصد إلى تقليد الفاطميين في تسميتهم للمهدية الشرقية، ولا ينبغي أن تلتبس المهدية هذه بالمعمورة التي تحمل هذا اللقب منذ أواخر القرن الحادي عشر الهجري فقط، هذا و(المهدية) أو رباط الفتح من أبرز آثار الموحدين التي صمدت إلى الآن وقد يكون في المؤرخين من أعطاها اسم قصبة تاشفين (؟) هذا وليس من (المهدية) «المدرسة» التي بجانبها فإنها من مؤسسات المولى الرشيد العلوي. البيذق ص 94 ـ 113.
معجم البلدان، صبح الأعشى جزء 5 ص 169 ـ الحلل الموشية ص 112.

Caillé la ville de Rabat 44.

Terrasse: L'art Hispano — Maresque, page 280 — 281 — 287 — 288.

Pérès: la poesie à fes Sous les Almoravides et les Almohades.

Hespéris 1934 page 30.

وانظر التعليق رقم 1 ص 70.
راجع التعليق رقم 3 صفحة 112 والتعليق رقم 2 صفحة 147.

(2) راجع التعليق رقم 3 صفحة 112.

(3) كذا في الأصل ويظهر أنه تحريف لكلمة فسيح.

(4) لم نعثر لهذه الكلمة على معنى في قواميسنا القديمة لكنه اسم معروف في بعض الكتب الأندلسية ومعناه النَّسيج الحريري الدقيق، وهكذا تكون الصفات الثلاثة الآتية كلها نعتاً للخلدي، أي أن هذه الراية الموحدية تتألف من نسيج أحمر وأصفر وأبيض.

Dozy: Sup T. I. page 390.

(5) يعطي ابن صاحب الصلاة هنا وصفاً دقيق ا لألوان الرايات الموحدية، فهي تعتمد ـ كما تقدم ـ على الأبيض والأصفر والأحمر، ونحن نعرف أن)العلام الأبيض) الخالص كان هو علم المهدي بن تومرت وعبد المؤمن أو بالحَرى هو علم الأمبراطورية الموحدية، كما نعلم أن اللون الأحمر كان هو اللون المحبب عند أشراف العرب هذا إلى أن اللون الأصفر يرمز عند الذين يهتمون بخصائص الألوان إلى الأرض وثروتها... فهل يكون هذا العلم الموحدي الإضافي يشير لوحدة البربر ـ ولون رايتهم بيضاء ـ مع العرب ولونهم هو الحمرة، كما يشير في اللون الثالث إلى =

في أركان تابوت المصحف المكرم: مصحف عثمان رضي الله عنه ثم استوى على صهوة فرسه، ومشى على الهيئة المتقدمة، والعساكر وراءه من الموحدين والعرب [305] قد ملأوا بسيط الأرض، واتسعوا فيها بالطول والعرض، فلما قرب من المدينة أمر بتقديم الطبول والرايات الكبار أمامه مع المصحفين[1] المذكورين مع الساقة، على خلاف العادة في المشي[2]، تنويهاً وتعظيماً للتبريز والترتيب، وهو رضي الله عنه متقدم والأشياخ من الموحدين، والوزير والكتاب والطلبة وراءه، حتى وصل باب مدينة المهدية، فرد وجهه إلى الناس واستقبلهم وهو راكب على فرسه وعالهم، وأمرهم بالنزول في تلك الأرض العريضة، ودخل إلى داره[3] بالمهدية المذكورة. وكان هذا التبريز للنظارة من احدى العجائب، وافخم الظهور والوفور للعساكر والكتائب، وكان دخوله المهدية المذكورة يوم الاثنين الموفى عشرين من رجب الفرد من سنة ست وستين المؤرخة. فالذي مشى في الطريق سبعة عشر يوماً.

= ثروة الأرض؟ لسنا ندري، لكن الملاحظ أن معظم هذه الألوان ظل معروفاً إلى الآن في جل بلاد أفريقيا وقد حاول بعض المتتبعين لدراسة العلم العربي أن يجد أثراً مضبوطاً لألوان الرايات المستعملة في المغرب قديماً لكن المصادر كانت تخذل رجال البحث.

الجراري: الغاية من رفع الراية ص 12 ـ

Debreuil: Les pavillons des états Musulmans.

Hespéris Tamuda 1960 T. I. page 548.

(1) في الأصل المصحف بالإفراد وهو خطأ من الناسخ بدليل السياق.

(2) لقد كانت العادة أن الطبول تقصف وراءه، وكانت الراية البيضاء وحدها هي التي تتقدم الموكب. راجع ص 301.

(3) هذه الدار لا تزال آثارها ـ فيما يعتقد ـ داخل القصبة، ويظهر لي أن لهذه الدار صلة بالمنزل الذي يوجد في أقصى طريق الجامع في الزاوية التي تؤدي إلى الساحة المشرفة على المحيط، ذلك المنزل يحمل اليوم اسم (دار البركة) هذا الاسم المستوحى دون شك من لفظ (البركة) المعروف استعمالها لدى الموحدين. CAILLE: la ville de Rabat P. 255.

(تاريخ مدينة الرباط)

وموضع[1] هذه المدينة المسماة الآن بالمهدية وبرباط الفتح كان في أيام السيرات فيه برج[2] للسكنى، وما حواليه أرض محرثٍ براح ومسرح، متملَّك للمخزن ولأهل سلى[3] ولابن وجاد[4] من أهل إشبيلية، فاشتراه الخلفاء من

(1) بفضل هذا الاستطراد الذي يذكره ابن صاحب الصلاة هنا اكتشفنا صفحة جديدة من تاريخ الرباط ظلت إلى الآن مجهولة من طرف الذين كتبوا عن الرباط فيما نعلم. راجع التعليق رقم 4 ص 112.

(2) في المؤرخين الافرنج من يرى أن هذا البرج كان أول الأمر من بناء الرومان لغرض الدفاع عن مدينة شالة العتيقة، وفي المؤرخين من يرى أنها قصبة تاشفين. . .

بوجندار: مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، الرباط 1345 ص 39 — 40.

Caille: la ville de Rabat. p. 35.

أنظر التعليق رقم 1 ص 355.

(3) لم يذكر ابن صاحب الصلاة لَمن في أهل سلا كان هذا النصيب؟ والواقع أنه كان ملكاً لبني القاسم والمعروفين ببني العشرة، ولعله كان ملكاً بالذات للقاضي علي بن القاسم بن محمد بن عشرة قاضي سلا الذي مدحه عيسى بن الوكيل مستجدياً بقصيدته التي يقول فيها:

سَلِ البرق إذْ يلتاح من جانبه البَرْقَا ... أقْرطي سُلَيْمَى أم فؤادي حَكى خَفْقا

غَريبٌ بأرض الغَرْب فُرِقَ قلبُه ... فآوت سَلاَ فَرْقاً وبابُرةُ فَرْقَا

حَيَاءٌ يغض الطرفَ إلاّ عن العُلَى ... وعِرْضٌ كماءِ المُزْن في الحَزْن بل أنْقَى

بلغنَا بنُعْمَاك الأمانِيْ كلَّهَا ... فما بقيتْ أمنيةٌ غَيْرَ أن تَبْقَى

وكان عيسى بن الوكيل مستعملاً في الدولة اللمتونية فحكى أنه انكسر عليه مال جليل يبلغ عشرة ألاف دينار فقبض عليه، وأشخص منكوباً إلى مراكش، فلما بلغ الموكلون به مدينة سلا وبها يومئذ بنو العشرة رباب السماح وأرباب الأمداح، قال هذه القصيدة يمدح القاضي أبا الحسن منهم. . . فلما وقف عليها قاضي سلا بادر إلى المخاطبة بتضمن المال وتحمله. . . فأسعف طلبه وعاد ابن الوكيل إلى غرناطة.

البيذق: أخبار المهدي ص 66.

الحميري: الروض العطار، نشر بروفنصال ص 197 ـ 198 ـ راجع صفحة 173.

السائح: الغصن المهصور (مخطوط). . .

(4) يظهر أن ابن وجاد هذا كان من أعيان إشبيلية على ذلك العهد، وأنه تاق لسكني العدوة فتملك نصيباً من الأرض على مقربة من سلا، وأن وجاد هذا هو بدون شك ـ الذي ترجمَ ابن الأبار =

أربابه وخلص لهم، وكان أهل الأثر يقولون في ذلك التاريخ: سيكون في هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة! فلما وصل أمير المؤمنين الخليفة رضي الله عنه إلى سلى في عام[1] خمسة وأربعين وخمس [306] مائة لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس، واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين وثوارها الأندلسيين، على ما تقدم الذكر به في[2] هذا التاريخ، أمرَ ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلا، وأقام بمحَلّاته المؤدية على عين غبولة[3]، والفعلة معه والمهندِسُون، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سَرب تحت[4] الأرض حتى إلى قصبة المهدية المذكورة، ودام اشتغال الأمر بذلك شهوراً وهو مقيمٌ بعسكره حتى وصل الماء المذكور إليها، فصنع له سقاية[5] لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات المغروسات، ثم اتصل الأمر العزيز بسكناها بالناس وبناء الديار

= لحفيده، وقد ورد في ترجمته هذا الحفيد أنه وجّاد ابن أحمد بن أحمد بن وجّاد الأزدي من أهل اشبيلية ويكنى أبا الحسن، وقد سمع من أبي عبد الله الفخار وغيره، وكان أديباً له حظ من قرض الشعر، وسَمّاه أبو الربيع بن سالم في مشيخته وهو في عداد أصحابه، وقد ترجم له أيضاً ابن الزبير في صلة الصلة.

ابن الأبار: التكملة: نشر كوديرا رقم 836 ـ ورقم 1991 ـ ونشر جونثاليث رقم 2733. ابن الزبير: صلة الصلة نشر بروفنصال الرباط 1938 رقم 335.

(1) البيذق ص 113 ـ القرطاس ثاني ص 145 — 146

(2) يعني في السفر الأول، وقد خذلنا ابن عذاري هنا فلم يردد صدى هذه الأخبار. . .

(3) أنظر التعليق رقم 1 ص 151. استقصاء 2. ص 198، القرطاس I. ص 162.

(4) امتاز المهندسون المغاربة بمقدرة فائقة في عمليات تسريب المياه في أجواف الأرض حسب أصول حسابية مدققة، وأن الذي يطالع ما ورد هنا أو ما يرد عندما تقرر إجراء الماء لسقي البحيرة بداخل اشبيلية. وكذا ما ورد في كتاب الاستبصار، عندما أمر الخليفة أبو يعقوب سنة 580 بجلب الماء إلى مدينة سبتة من قرية بليونش، وكذا ما ورد في القرطاس عندما تقرر جلب الماء لميضاة جامع القرويين من مدينة فاس، أواخر القرن السادس ليشهد بما لهؤلاء العرفاء المغاربة من باع في هذا الصدد.

الاستبصار نشر زغلول صفحة 137 ـ 138، كتاب المن بالإمامة صفحة 323 القرطاس طبعة الرباط صفحة 99 ـ 100 ـ 101.

(5) ما تزال إلى الآن آثار السقايا التي يتحدث عنها ابن صاحب الصلاة.

حواليها والأسواق، ولم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظاً وافراً من التشريف لها بالاختصاص فيها والمقام، حتى غدت عراقاً[1]! وتلاحق الناس بها لحاقاً، وأشرقت الآمال فيها إشراقاً، وأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا هو الذي مصَّرها ومهدها، وابتدأ بناءَ أسوارها من جهة الجوف والغرب.

فلنرجع الآن إلى ما كان من الأوامر العزيزة بعد الوصول إلى المهدية. ولما كان في ظهر يوم وصوله أمر بتتميم الصلاة إشعاراً بأن الإقامة[2] أياماً، [307] وفي اليوم الثاني من وصوله أمر بتمييز العساكر المؤيدة مرةً ثانية من التمييز الأول بحضرة مراكش وحضر على تمييز العرب السيد أبو زكريا، وأبو محمد عبد الله المالقي، لمعرفته بهم وبأنسابهم وأمانته، وسياسته وزكاته، فكمل تميُّزهم على أصح عمل، وكذلك تَميَّزَ الموحدون، فصح عددهم. وعند احتلاله بها ألفى الماء الجاري المسرب الذي جلبه أبوه رضي الله عنه في عام خمسة وأربعين المؤرخ، فسد جريه، وأسن ماؤه، وتعطّل في البطاح والبحاير سقيه، فأمر بإعادته[3] إلى حالته الأولى، وزاد فيه بناء صهريج عظيم متسع يجتمع فيه الماء، ثم يجري من ذلك الصهريج إلى السقاية المذكورة

(1) أصل كلمة عراق أيراه أي ساحل البحر، وقد عربته العرب، ولذا قال الخليل: العراق شاطيء البحر، وسمي كذلك لوقوعه على شاطيء دجلة، وقد ورد ذكره مقروناً بفهوم الثروة والرخاء:

(فتُغلل لكُم ما لا تُغلّ لأهلها قُرىً بالعراق من قفيزٍ ودرهم)

هذا وقد جاء في ابن خلكان أن بناء الرباط على هيئة الاسكندرية، وهم كانوا يعنون دون شك أن تصبح إحدى عواصم الإسلام في الجناح الغربي، ولم يفت البروفيسور طيراس أن يتساءل عن وجود إسم الاسكندرية هنا دون وجود اسم بغداد أو دمشق؟ وأنت ترى هنا أن ابن صاحب الصلاة ظهر له أن يشبهها بالعراق أي ببغداد عاصمة العراق، لوقوعها على شاطيء وادي أبي رقراق ولما كان للعراق من مكانة. . .

المعجب صفحة 266. Terrasse: L'Art Hispoano — mauresque.

جاسم الخلف: جغرافية العراق صفحة 434.

(2) يظهر أن هنا كلمة سقطت للناسخ: (تطول) أو (تمتد).

(3) من هنا يتأكد أن المنصور ـ ولو أن أباه صاحب الرباط ـ يعيد للمهدية حياتها ويجعل منها مدينة حقيقية. ابن القاضي، الجذوة ص 349.

حيث شرب خيل العساكر ومواشيهم ومواشي الناس وشربهم، وكذلك ألفى الجسر الذي كان قد نصبه أبوه رضي الله عنه ما بين سلا وبين المهدية المذكورة على البحر[1] لإجازة الناس عليه، قد خرَّقته البحور، وهدمته الدهور، فأمر بنصب[2] جسر آخر إلى جانبه أعظم منه بناء، وأساساً واعتلاء، من الحجر العادي والجيار الثابت لأمواج البحار، فصنع في أقرب مدة، بأعظم آلة وعدة، ووصله بالقوارب[3] والخشب، حتى جاء في أمن له من الأزمان والحقب، ثم تمّم رضي الله عنه إعطاء الكسوات للموحدين والأشياخ من كل قبيل ولطلبة الحضر والعرب، بأن أعطى كل واحد [308] ستة أثواب: عمامة وغفارة، وقبطية مبطنة، ومقطعين مهدويين[4] وكِساء، وخص كثيراً منهم بأخبية

---

(1) يُسمى بعض المؤرخين الوادي الذي يفصل بين سلا والرباط بحراً كما تسميه بذلك العامة الآن، وذلك على سبيل التجوز بيد أن فيهم من أعطاه اسماً خاصاً، لكنهم كانوا يختلفون في الاسم فبينما نجده عند البكري وادي وانسيفن نجده عند الإدريسي والفزازي يحمل وادي أسمير، ونجده عند المراكشي يحمل اسم وادي الرمان. ونجده عند ابن حوقل يسمى بوادي سلا وعند ابن عذاري (بحر سلا)، وسمعنا بتسميته بوركراك عند ليون الأفريقي والنَّاصري كذلك، وقد حاولت أن أجد أصلاً لهذا الاسم الطاريء ويمكن أن يكون الوادي منسوباً إلى قبة لاله ركراكة التي توجد بأطلال مدينة شالة المشرفة على الوادي وقد أشار بعض الأدباء المغاربة إلى أن أصل التسمية من رقرقة الماء وصفائه. ولا ننسى أن نذكر أن صاحب الاستبصار يجعل وادي وانسيفن هو أم ربيع، كما لا ننسى أن نذكر أنه توجد قرب مدينة سلا إلى الآن عين تحمل اسم أسمير وهي تصب في بوركراك. هذا وإن وادي بورقراق ينحدر من الأطلس المتوسط ويصب في المحيط بين سلا والرباط وطوله 250 ك. م.

الإدريسي - نزهة المشتاق ابتداء من صفحة 7 - الاستبصار 141 - 185 - المراكشي ص 358 - التاصري، الاستبصار جزء 6 ص 12 - ابن عذاري ص 26.

Leon l'Africain: Description de l'Afrique Traduits par A. EPAULARD — page 543.

BASSET — Provençal: challa, Hes. 1922 T. II. P. 415.

(2) لعل هذا الجسر هو الذي كان يبتديء عند منحدر سيدي مخلوف، وقد أدرك القاضي السائح طرفاً منه ضارباً في الوادي قبل أن يقوض لتوسعة ساحل النهر. الغصن المهصور مخطوط ورقة 16.

(3) يذكر صاحب الاستبصار صفحة 141 أن القنطرة مركبة من 23 معدية.

(4) لم أتأكد من صفة المقطع المهدوي، بيد أن أغلب ظني إنه يعني بالمقطع القميص، فإن هذه الأنواع من الثياب كلها كما نرى تكون - عادة - فوق الثوب الذي يلِي الجسد وهو القميص.

وخيل عتاق، إحساناً وإنعاماً وامتناناً، وتمم قضاء حوائج الناس ومسائلهم، وتصدَّق على الضعفاء المأسورين. فلقد رأيت[1] شيخاً من بني الموصلي من أهل بطليوس رأسه كالنعامة بياضاً، قد تعرض له في هذه الغزوة السعيدة في طريقه وقال له: إنه أسر يوم دخول النصارى مدينة بطليوس وأن له ثلاث بنات، ليس له إليهن حيلة بما يسترهن! فأمر له بمائتي دينار في فديته، وبثلاث ماية مثقال عن جهاز لبناته! ولما كمل النَّظر المذكور، والفضل المأثور، أمر بالحركة وعبور البحر على الجسر إلى سلى، إلى الغزوة الميممة، وذلك في عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان المبارك من سنة ست وستين المؤرخة، ولمّا كان صبيحة يوم السبت - الثاني من يوم الجمعة والعاشر من شعبان المؤرخ - تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين أعزهم الله وأجازوا، ثم تلاهم السيد أبو زكريا بالعرب، ودام هذا الجواز خمسة أيام، ثم تحرك أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عنه من المهدية يوم الخميس الخامس عَشَر من شعبان المؤرخ، وأجاز بالجميع الباقي: بالشيخ أبي محمد عبد الواحد بن عمر، ووزيره، وبني الجماعة، [309] والحفَّاظ والطلبة من أهل الحضر والعبيد على ما تقدَّم من ترتيب المشي والحركة، ونزل بالموضع المعروف بالحمّام[2] على مقربةٍ من وادي سبو بالمعمورة، فاجتمع في عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس. وفي عسكر العرب عشرة آلاف فارس، دون المتطوعة من الناس والمجاهدين. وقد كان تقدم مع السيد الأعلى، المجاهد الأسنى، أبي حفص، وقبل ذلك مع الشيخ المرحوم أبي حفص أيضاً - من العساكر ما قد ذكرتهم، فاجتمع في الأندلس من العساكر عددٌ عظيم، وظهر بهم الفتح الجسيم، واتصل سير امير المؤمنين

---

(1) الموصلي نسبة إلى موصل قرية بأشبونة، وإليها ينسب عبيد الله بن خليفة الذي ولي قضاء اشبيلية على عهد اللمتونيين. . . ونعتقد أن للشيخ هنا صلة بابن الموصلي القاضي. .

ابن الأبار التكملة «كوديرا» رقم 1511.

(2) الحمّام بتشديد الميم (EL — Hamâm) هو المكان المعروف بهذا الإسم إلى الآن على بعد أحد عشر كيلومتراً جنوب شرقي (مدينة القنيطرة). Huici page 249.

حتّى إلى البحر بقصر مصمودة[1]، وابتدأت العساكر بالإجازة من أول شهر رمضان من السنة المؤرخة، وأجاز البحر هو مع خاصته في اليوم السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم المذكور، وتلقاه أشياخ أهل إشبيلية وقرطبة وجميع أشياخ الأندلس بجزيرة طريف[2]، ثم تحرك رضي الله عنه بالوصول إلى حضرة إشبيلية، فدخلها يوم الجمعة الثاني عشر من شوال بعد صلاة الجمعة من سنة ست وستين وخمس مائة المؤرخة، على مثل ما ذكرته من التبريز الحفيل، وخروج الناس إليه للتبرك به بالإسراع والتعجيل، بما دلَّ على طاعتهم له وسرورهم به أدل دليل، وأقام فيها عشرة أيام، ثم رحل إلى قرطبة في الثالث [310] والعشرين من شوال، ووصل قرطبة في غرة ذي القعدة، ووجه عسكراً مباركاً منها إلى طليطلة قدم عليه أبا محمد عبد الله بن أبي حفص بن تفريجين، وأشياخاً من الموحدين، فأجاز وادي تاجه[3]، وغنم بطاحها وما حواليها وانصرف إلى قرطبة سالماً غانماً، واستقر العسكر بقرطبة في داخلها وفي خارجها على ضفتي الوادي مدة إقامة أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بِهَا إلى آخر ذي الحجة من سنة ست وستين حين انصرافه إلى إشبيلية، ولم ينزل بإشبيلية من دُورها إلا نحو ستين داراً لأشياخ الموحدين خاصَّة، واشترى فيها مائة دار من مال نفسه لمَن وفد إليه، رفقاً منه بأهل إشبيلية رضِيَ الله عنه، وقسَّم الموحدين على البلاد وعلى الأنظار بالسكنى مدة إقامته بجزيرة الأندلس إلى أن انصرف عنها.

---

(1) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 128.

(2) أنظر التعليق رقم 3 ص 218.

(3) وادي تاجة (Tajo) أحد الأنهار الأربعة التي تنحدر في المحيط: مينيو - ديرُو - يانة وهو ينبع من الجبل الذي يقع شمال شرقي قونْكة ويصب عند مدينة لشبونة وقد ورد في الروض المعطار عند وصفه أنه نهر عظيم يشق طليطلة، وأنه يخرج من بلاد الجلالقة ويصب في البحر الرومي. الحميري ص 62.

ذكر أوامره العزيزة عند احتلاله إشبيلية ووصوله من مراكش إليها

وعندما احتل بها أخَّر محمد بن أبي سعيد المعروف بابن المعلم[1] عن أعمال المخزن بإشبيلية والأندلس وعزله عنها، وأمره بالمشي إلى قرطبة لمحاسبته والوقوف على عمله، وقدَّم على أعمال إشبيلية أبا داود يلول بن[2] جلداسن، وهذا التأخير له [311] والعزل لنقد في أفعاله وأعماله منذ أعوام، لم يزل يتكرر عليه الفكر فيه، إلى أن أدى به إلى مقتله وميتته حسبما أذكره في هذا التاريخ[3] بعد هذا، وعندما وصل إلى قرطبة جُعل لمحاسبته أبو القاسم بن عساكر[4]، وأبو عبدالله بن محسن[5] كاتب العسكرية، وأُمِر بالحضور على تسطير عمله الفقيه أبو محمد المالقي والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز[6] يشهدان على كل ما يسطره، دام ذلك إلى آخر شهر ذي الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة عند انفصال أمير المؤمنين من قرطبة إلى إشبيلية، ولما دخل أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى إشبيلية على الهيئة الحافلة من السرور والتبريز العظيم الكريم، الذي لم يرَ الناس مثله في الأندلس في الحديث ولا في القديم، قال الأستاذ ابن سيد[7] يمدحه ويهنئه

---

(1) راجع التعليق رقم 2 ص 142.

(2) راجع التعليق 1 ص 142.

(3) يعني في السفر الثالث وقد أفادنا هنا ابن عذاري نقلاً عن السفر الضائع أن ابن المعلم هذا انتقدت عليه أخبار شنيعة فأمر بسجنه وأخذ ما بيده فلم يبق له سبد ولا لبد وتفرقت جميع أمواله شذراً بذراً وضربت بعد محنة طويلة عنقه سنة وثلاث وسبعين وخمس مائة. راجع التعليق رقم 2 ص 142.

(4) راجع التعليق رقم 3 صفحة 138.

(5) ورد نعته أحياناً بكاتب ديوان التمييز. أنظر التعليق رقم 2 ص 347.

(6) لم نقف على الترجمة لهذا الكاتب في معاجم الأدباء الموحدين التي بين أيدينا.

(7) يذكر ابن صاحب الصلاة هنا (ابن سيد) دون أن يميز هل ما إذا كان يعني ابن سيد المالقي أو ابن سيد الأشبيلي لكنا - وقد عرفنا أن الأول توفي بعد سنة 560 بيسير، وأن الثاني لم يتوف إلا سنة 576 نرجح أنه قصد إلى ابن سيد الأشبيلي المعروف باللص. هذا وقد كان في من تحدَّث من الشعراء بهذه المناسبة الشاعر أبو العباس الجراوي الذي قال في إحدى قصائده يشير إلى الطوائف المتمردة:

تَنَالُ المارِ قين بكلِّ أرْضٍ ... ولا طَارَتْ ولا نقلت خُطَاهَا =

ويذكر حال ابن مردنيش، ويصف بروز الناس إليه يوم وصوله: (كامل)

السَّعْدُ يقدُم والعزائمُ تصدُقُ   والنَّصْرُ بينهما يخبُّ ويعْنَق
وأمامَها ملكٌ أغَرُّ يحفُّهُ   جَيْشٌ تغصُّ بِه البلاد وتشْرقُ
مَلأَ البسيطةَ مِنْهُ بحْرٌ زاخِرٌ   في لجَّتَيْهِ كلُّ بحْرٍ يغْرَق
وجلا رياضاً للنَّواظِرِ أطْلَعَتْ   فيها الدِّمَاءُ أزاهراً لا تعْبَق
راع المَمَالِك فاتَّقَتْ بمُلُوكِهَا   حتَّى كأنَّ بها حُبَالى تُطْلِق
[312] جُنَّ ابنُ سَعْدٍ[1] بالنفاقِ جنونُه   وطغى إلى أنْ بات فيه الأوْلَق[2]
نُظِمت له جرد العتاقِ تَمائماً   لَيْسَتْ على أهْل الجُنُون تُعَلَّق
فقَضى حَصِيراً[3] إذْ تَيَقَّن أنَّهُ   إمَّا قَتِيلٌ أو أَسِيرٌ مُوثَقُ
غُر الشَّقى بنأيكُم عن أرْضِهِ   جَهْلاً وظَنَّ بأنَّهُ لا يُلْحَقُ
أوَ ما رَأى شَمْسَ الضُّحَى في جوِّها   والمغرب الأقْصَى لها والمَشْرِق
وإلى الذُّنوب فأوبقته كَثْرَةً   إن الذُّنوبَ إذا توالتْ تُوبِقُ
ولعَلَّه قَدْ كان يعتِقُ رقَّهُ[4]   مَلِكٌ إذا مَلَك البريَّةَ يُعْتِقُ
مَلِكٌ أفاضَ عَلى الجَزِيرةِ رحمةً   أحْيَا الرجاءَ بِها حَياةُ المُغْرِق

- ويقول في قصيدةٍ أخرى همزية:

لَوْ كانتِ الجوزاءُ من أعْدَائِهِ   لم تنجُ عَن غارَاتِهِ الجَوْزَاءُ

وعلى عادة ابن صاحب الصلاة فإنَّه لم يأبه بشعر الجراوي الذي ـ لولا صاحب البيان المغرب ـ لظلَّ في عداد المفقودات.

راجع التعليق رقم 1 صفحة 76 والتعليق رقم 1 صفحة 99 والتعليق رقم 3 صفحة 298 ابن عذاري: البيان المغرب (مخطوط) ص 83 ـ 84.

(1) يعني سعد ابن مردنيش، وفيه يقول الجراوي أيضاً بهذه المناسبة من قصيدة مرت الإشارة إليها:

خطوبٌ أذْ هلتْ عقلَ ابن سَعْدٍ   وزادتْ عن لواجِطه كراها!

(2) الأولق: المس من الجنون أي لدرجة أنه أمسى متلبساً بالجُنون! هكذا يظهر لي.

(3) من معاني الحصير السجين، ولا يبعد أن يكون الناسخ أبدل السين بالصاد كما فعل بالفسيح حيث جعله فصيحاً. أنظر التعليق رقم 3 صفحة 355.

(4) لم نهتد لصلة البيت هذا بالبيت قبله ولعل هنا بتراً لبيت رابط.

وَافَى لِيَرْتَقَ فتْقَها لَمَّا رَأى   أنْ لا سِواهُ يسدُّه أو يُرتَق
ولقَدْ تيقَّنَ أن سَتُفْتَح فارِسٌ   بجُنُودِه قَسْراً وتُفْتَح جلَّقُ[1]
وَلِيَ الخِلافةَ فاستَقَلَّ بعِبْئِها   ولقد تُهَدُّ بِهَا الحلالُ وتقْلَقُ
حسُنتْ وضاعَفَ حُسْنَها فكأنَّه   تاجٌ مُحَلَّى وهْيَ فِيه مَفْرِقُ
ما زالتِ الأيامُ خُرْساً قَبْلَهُ   فَرَجَعْنَ فُصْحاً عَنْ عُلاه تنطِق
مَنْ لِلمُلوكِ بأنْ يَنَالُوا شَأوَهُ   وَلَهُمْ إذا جاروه باعُ ضَيِّقُ
إن كانَ قصَّر كلُّ مَلْكٍ دُونَه   فالرّخُ قَصَّرَ عَنْ مَداه البَيْذَق[2]
عَمَّ البريةَ رِفْقُه فكأنَّه   لَهُمُ أبٌ حانٍ أو ابنٌ مُشْفِقُ
يُعْطِي الجزيلَ ووجهُه متهلِّلٌ   وكَذَا السَّحابُ إذا تبجَّسَ يُغرق
أبَداً يسحُّ بما تسحُّ بنانُه   ويُمِرُّها فوقَ الهشيم فَيُورِقُ
كَرَمٌ يزيدُ ذُو الغِنَى فيهِ غنى   أبداً ويثْري إن عَرَاه المُمْلِقُ
[313] شَقي العِدى منه ببَطْشَةِ محنَقٍ   عَجَباً وَهَل ينتابُه ما يُحْنِق؟
وَافَى فردٌ عَلى الزَّمان شَبابَهُ   وكَسا بِلاه جِدَّةً لا تَخلَق
وجَلا مَراءِ الدَّهْر من صَدَإٍ بِهَا   فأعيدَ فيها ماؤُها وَالرَّوْنَق!

---

(1) لفظة أعجمية اسم لدمشق، وقيل اسم لموضع بقرية من قراها... قال حسان بن ثابت الأنصاري:

لله در عصابة نادمتهم   يوماً بِجِلّق في الزَّمان الأول!

هذا وقد كان الموحدون ـ كما يتأكد من خلال آثارهم ـ يتوقون لأبعد من الرقعة التي عرفت لهم، فقد كان هؤلاء المغاربة يطمحون إلى (وحدة إسلامية) تربط بين سائر أجزاء العالم الإسلامي. وترى الشعراء ـ وهم لسان حال الدولة ـ يتحدَّثون عن فتح فارس ودمشق، أو عن المشرق والمغرب.
الدكتور أحمد مختار العبادي، الموحدون والوحدة الإسلامية، مجلة التربية الوطنية ـ مارس 1692 ص 16 ـ 22 ـ عدد ابريل ص 21 لـ 31 ـ راجع أشعار ص 9 و 13 من المن بالإمامة وص 118 من ابن عذاري.

(2) يعتبر الرخ في اصطلاح أهل الشطرنج برجاً من الأبراج وهو يتحرك أماماً وخلفاً بينما يعتبر البيذق جندياً يقتصر اتّجاهه على الأمام.

أوَ مَا تَرَى الأيَّامَ تَنْدَى نَضْرَةً
مُذْ حَلَّ حِمْصاً(1) والليالي تُشْرِقُ!

وقَفُوا على شُوقٍ لرؤيةِ وَجْهِهِ — وبودِّهِمْ أنَّ الرؤوس الأسْوُقُ!
رمَقُوا بأبصارٍ إلَيْهِ، وعِنْدَهُ — أنَّ القُلُوبَ لَهَا عيونٌ تَرْمُقُ
بَرزُوا ليَوْمِ بُرُوزِه فِي عارِضٍ — يَعْيَى اللِّسانُ لوصْفِه والمنطِقُ
مِنْ كُلِّ ذِمْرٍ كل ما حَضَرَ الوَغى — بسَلَتْ(2) به حومَاتها والمَآزِقُ
يسْعى إلى المَوْتِ الزؤام، ووجهُهُ — طَلْقٌ وفي دِرْعَيْهِ أفْعَى مُطْرِقُ
ولطالَمَا تَهْدي الدِّمَاءُ لأنفِه — زهرَ الرَّبيع فما يَنِي يَسْتَنْشِقُ
شَقِيَتْ بعَزْمَتِه فلاةٌ وحْشَةٌ — ومطَهم نَهْدٌ وعَنسٌ خَيْفَقُ

حضور أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين (رض) عيد الأضحى بمدينة قرطبة وعسكره معه

ولما كان صبيحة يوم العيد خرج على عادته من الوقار والسكينة إلى الصلاة بموضع الشريعة(3)، وصلّى الخطيب أبو محمد المالقي به، وخطب الخطبة المعلومة، ثم دعا أمير المؤمنين للناس بدعائه المبارك، وسلم عليه أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم، وذبح [314] الكبش بين يديه، وانصرف إلى دار الإمارة بقرطبة، وانصرفت العساكر والناس إلى منازلهم لترتيب عيدهم على مجرى السنة بانصرافه. وجلس في اليوم الثاني من عيد الأضحى المذكور عند الشروق في مجلس اليمن من قصره بقرطبة مجلس السلام عليه والتهنئة إليه في أبهته الشريفة، المنصورة الفخمة المنيفة. وأدخل الوزير أبو العلى إدريس بن أبي إسحاق بن جامع إلى المجلس العالي

(1) حمص: اشبيلية.
(2) يوجد في الأصل غموض عند قراءة هذه الكلمة إذْ أنها كتبت هكذا (سات) لكن الظاهر أن الصواب (بسلت).
(3) أنظر التعليق رقم 1 صفحة 214.

مَن تقدمت عادته بالدخول من أشياخ الموحدين الكبراء وأبناء الجماعة ومن يليهم على عادتهم بحسب منازلهم، وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب والأولياء وأهل الوفود ووجوه أهل قرطبة من ذوي الطلبة والتعين من أرباضهم، وسلم جميعهم واحد بعد واحد يعرّف باسمه، وإن كان ممن يتميز يعرّف الوزير والفقيه أبو محمد المالقي باسمه ونسبه وبلده، ويبايع ويقبِّل اليد المباركة للبيعة له ويخرج.

ودخل معهم الشعراء والأدباء بما صاغوه من أشعارهم في المديح والتهنئة. فقام عبدالله بن الشيخ الشاعر محمد بن إبراهيم بن المنخل الشلبي(1) منشداً هذه القصيدة والوزير أبو العلى واقف، والكاتب أبو الحسن بن عياش كذلك يحسن أبياتها؛ وقال: (كامل)

شَرَفُ الخِلافَةِ أنْ ملكتَ زِمامَهَا — وغَدَوْتَ مِنْ عقب الإمام أمامها!
وافَتْكَ تَبْتَدِر (وا)(2) الرضى إذْ رُمْتَهَا
ولَشَدَّ مَا امْتَنَعَتْ عَلَى مَنْ رَامَهَا!
[315] طَبَعَ الإلاهُ لَهَا حُسَاماً صَارِماً
يَحْمِي جَوانِبَهَا فكُنْتَ حُسَامَهَا
ورأتْ عُداةُ اللهِ أنَّ حِمَامَهَا — مِنْ قَيْس غيلانٍ(3) فكنتَ حِمَامَهَا
فعَلى رماحِك أن تشُقَّ جُيُوبَهَا — وعَلى سُيُوفِك أنْ تُفَلِّقَ هَامَهَا

(1) يكنيه ابن عذاري أبا محمد، ويتفق معه ابن صاحب الصلاة في أنَّ أباه هو محمد، وقد ترجم ابن الأبار لشاعر قد تكون له صلةٌ بهذا: فهو أبو محمد عبد الله من أهل شلب صحب أبا بكر بن المنخل وأبا عمر بن حربون، وكان أديباً نبيهاً من أهل الذكاء والتيقظ يقرض أبياتاً من الشعر. التكملة ـ كوديرا ـ رقم 1427.
(2) كذا في الأصل وواضح أن زيادة الواو في غير محلها.
(3) يجعل الناسخ هنا نقطة واضحة فوق العين في أصل المخطوط ولم نكن لنعير هذا الصنيع التفاتا لولا ما وجدناه في البيان المغرب من نصه على ضبطه (بالغين المعجمة) مما يدعو إلى الشك في الناسخ. أنظر صفحة 35 من مخطوط ابن عذاري، أنظر التعليق رقم 2 صفحة 300 ـ البيذق 22 ـ لسان العرب ـ.

وعلى جُيُوشِك أنْ تُدَوّخ أرضَهَا   وتَدُوسَ في عَرَصَاتِها أصْنَامَهَا
وَعلى الخِلافَةِ أن تَلُوذَ بسَيّدٍ   يُجْرِي على سُبُلِ الهُدَى أحْكامَهَا
ملكٌ يجيرُ على الزَّمانِ، فإنْ تُضِم   حرّاً بواديه اللّيالي، ضَامَهَا!
قسْطاسُ عَدْلٍ لا يَمِيلُ، فإنْ رَأى   مَيْلَ الشَّريعةِ أمَّها فأقامَهَا
يُطْفِي الحُروبَ إذا توهَّجَ جمْرُهَا   ولَرُبَّمَا خَمَدتْ فشبّ ضِرامَهَا
وإذا أسُودُ الحَرْبِ هَاجَ عُرامُهَا   عَانَى بحدِّ المَشْرَفي عُرامَهَا
وإذا المَخَايِلُ أخْلَقَتْ أنْوَاؤهَا   أجْرَى عوارفَه فكنَّ غُمامَهَا
وإذا بُرُوقُ المُزْنِ لُحْنَ كواذِباً   صَدَقَتْ بُرُوقُ نَوالِه مَن شَامَهَا
مَا الجُودُ إلاّ ما تُفيضُ بَنَانُه   لا مَا تفيضُ العُرْبُ فيه سِهَامَهَا
ما البَأسُ إلا ما تضمَّن سَيْفُه   لا يضمن[1] بعضَها صمصامَهَا
ما الرِّجْزُ إلا ما يجرُّ خلافُه   لَيْسَ الذي وسمتْ به أيامَهَا
ما السَّعْدُ إلا ما ينالُ وُفُودُه   وذَرِ السُّعُودَ فقد عَزت خُدّامَهَا
تَنْهَلُّ بالآلاءِ منْهُ راحةٌ   لا يَنْزِفُونَ على السؤالِ جِمَامَهَا
طلْقٌ إذا برقَتْ أسِرَّةُ وجْهِهِ   شِمْتَ الأزاهِرَ والحياءَ كمامها
طلْقٌ كما اختار النّدى، وبَسالةٌ   تركتْ لهَا أسْدُ الشرى آجامَهَا!
حَازَ المكارمَ قنيةً ووراثةً   ورأى المحامدَ حليةً فاعْتَامَهَا
[316] للهِ رعيُك في رعايةِ أمَّةٍ   ذَعَرتْ دِياتُ[2] المشركين سَوامَهَا
أسكنتَهَا أرسَى محلٍّ بَعْدَمَا   كادتْ تقوّضُ للجلاءِ خِيامَهَا!
لمَّا رأيتَ الدِّينَ أظلمَ جَوُّهُ   والحربَ قَدْ سَدَلَتْ عَلَيْه قَتامَها
أقبلتَها شُعْثَ النَّواصي شُزَّباً   جُرْداً تُباري في الفَلاةِ سَمَامَهَا[3]
مِنْ كلِّ مُشْرِفة التَّليلِ[4]، كأنَّما   عَقَدُوا بباسقةِ النّخيلِ لجَامَهَا

(1) كذا في الأصل ويظهر أن هنا كلمة (ما) محذوفة أي (لا ما يضمن بعضها صمصامها) وقد روى البيت في ابن عذاري بصورة مشبوهة. أنظر صفحة 183 من المخطوط.
(2) يعني أن العاهل لكثر ما يبذل من ديات للمشركين - إعزازاً لرعيته - فإن السوام - والديات كثيرة - يتملكها الفزع... لأن على حساب حياتها يكون الأداء...
(3) أقبلتها: جعلتها تلي قبالتك، والسمام: ضَرْبٌ من الطير دون القطا في الخلقة.
(4) التليل: العنق، يعني طويلة العنق.

وأغَرَّ وضّاحِ الحجول مُطهَّمٍ   يجْلُو إذا خاضَ الغمارَ ظَلامَهَا
تَسْري بخَيْرِ عِصَابةٍ قَيْسيةٍ   تَسْري الفُتُوحُ مشيحةً قدَّامَها
هُنَّ القِسِيّ ضَوامِراً فإذا رَمَى   عَنْ نَزْعِها الأعْداءَ كنَّ سِهَامَهَا
يَلقى العداةَ الرعبُ دُونَ لِقائِها   فيزلُّ قَبْلَ قِتالِها أقْدامَها
قلّدْتُم منْها الأهاضِبَ حِلْيَةً   كادتْ تُغالِطُ في الفُرُوعِ حَمامَهَا
هي نِعْمَةٌ لا تستقِلُّ بشُكْرِها   إلا لسانُ ألهمتْ إلهامَها
فإذا تَمطَّى بالقَريحةِ وصْفُها   فضَحَ التَّمطِّي نَثْرَها ونِظَامَهَا
فاهْنأ أميرَ المُؤمنين بدَوْلةٍ   عَقَدَ الإلاهُ ذِمَامَكُم وذِمامَها
ورمَتْ برمَّتِها إلَيْكَ، وإنَّما   شَرَفُ الكرائمِ أن تخُصَّ كِرامَهَا
فلرُبَّ نابيةِ السَّنَامِ منيعةٍ   ذَلَّلْتَها حتّى وطيتَ سِنَامَهَا
ومنيعةٍ صَعُبَتْ وعزَّ مرامُها   سهَّلْتَ بالبِيضِ الرِّقاقِ مَرَامَهَا
قُلْ للأقاصِرةِ الّذين تَمرَّدُوا   وافَى مُشمَّ المَاردين رغامَهَا
أخذ الشعابَ على الشُّعوبِ فإن عَدتْ   سُبُلَ الهُدَى سدَّ الشعابَ أمامَهَا
وأرَى الشَّقيَّ بن الشقيّ تغُرُّه   فِئَةٌ أضلَّ ضلالُها إسْلامَهَا
[317] لَيْسَ ابنُ سَعْدٍ حلفَ سَعْدٍ إذْ غَدَا   حلفَ النّصارى عاضداً أحْكامَهَا
فلسوفَ يُصْبِحُ بالفَضاءِ مُجَدَّلاً   إنْ لم تُطَهِّر نفسُه آثامَهَا
ويمدُّ للتَّوْحِيد كفَّ ضَراعةٍ   بعتابِ نَفْسٍ رَاحضاً[1] أجْرامَهَا
أنّى يفوتُك خائنٌ ولو اعْتلَى   دَارَ المجرَّةِ[2] وارْتقَى أعْلامَهَا
هَيْهاتَ يُفلِت عزمَكم ولو امْتطَى   زُهْرَ الكواكبِ واحتَذَى بَهْرامَها[3]
وإليْكُم وفدَ العَبِيدِ تَسُوقُهم   هِمَمٌ شفيتُم هيمَها وهيامَها
يتقدَّمُون مَحبَّةً وتَعُوقُهُم   فِتَنٌ تَعُوقُ عَنِ الجُفُون منامَهَا

(1) رحض الثوب: غسله، ومنه المرحاض.
(2) منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء.
(3) البهرام اسم المريخ، وإياه عنى حبيب بن أوس:
لَهُ كبرياءُ المُشْتَري وسعودُه   وسورةُ بهرام وظرفُ عطارد



وتَـمَـلَّؤ الأزْمَـانَ أعـيـاداً كَـمَـا   حلَّيتُـم بِسَـنِـائـكُـم أيَّـامَـهَـا
وتقبَّلوا قَصْـدَ العَبِيـدِ فقصـدُكُم   عَمَـلٌ يُطابق هَـدْيَها وطعَـامَهَـا
وتكفَّـلَ الـرَّحْمنُ نـصْـرَةَ مُلكِكم   وأمـدَّ مـدَّة عُـمْـركم وأدامـهـا

سنة سبع وستين وخمس مائة

انصـراف أمير المؤمنين بن أميـر المؤمنين من قـرطبـة إلى إشبيليـة واستيطانه فيها وذكر أوامر العزيزة في مصالحها ونواحيها

وأنه لما صح عنده أن أخاه السيد الأعلى المؤيـد المجاهـد الأسنى أبا حفص قد أخذ في الانصراف من غزوته، ومن حصار ابن مـردنيش في مرسيـة واستيلائه على أكثر بلاده، وأن انصرافه إنما هو للتبـرك بالاجتمـاع وللمذاكـرة فيما فتح الله في غزوته من البلاد [318] والأسقاع، واستعجل هو بالانصراف فدخلها يوم الأحد الثاني من شهر المحرم من أول السنة المؤرخـة، وقد كـان أمـره الكريم نفـذ بعمـل القنـطرة[1] على الـوادي[2] لمصـالـح النـاس وإجـازة العساكر عليها ومرافق أهـل إشبيلية وأهـل الشرف[3] والأنـظار، فابتـدأ العرفـاء والصناع العمـل فيها والنجارة والهنـدسة لـوضعها على الـوادي يوم السبت أول يوم من المحرم سنة سبع وستين المؤرخة ـ أمْس وصول سيدنا أميـر المؤمنين ـ فاتصل العمـل فيها وزاد بحضـوره الاجتهاد، والنصـح والاقتصاد، فكملت في اليوم السابع من صفر من سنة سبع وستين المؤرخـة وحضر أميـر المؤمنين يوم كمالها حتى عُقـد الجسر منهـا ووضع على الـوادي وكان يـوماً حفيـلاً من قرع

(1) أورد الأستاذ ميلتشور أنطونيا وصفاً دقيقاً لهـذه القنطرة مـأخوذة من كتـاب تاريـخ اشبيلية للمؤرخ المسيحي مـورجادو و(ص 29) وهـو وصف يتفق تمامـاً مع مـا سيذكـره ابن صاحب الصـلاة وقـد تحدثت عن هذه القنطرة (حوليات تاريخ اسبانيا) التي أمر بتأليفها الملك الفونسو العاشر المعروف بالحكيم (ص 760 ـ 762).

Melchor Antona: Sevilla y sus monumentos arabes. 1930 p. 61 — 83.

(2) هو وادي اشبيلية (Guadalquivir) راجع التعليق رقم 2 ص 165.

(3) أنظر التعليق رقم 5 صفحة 67.

الطبول، وكمال ما أمر فيها من المأمول، من حضـور الكتائب والجنـود، وعقد الألـوية والبنـود، وفي الخامس عشر من المحرم من هـذه السنة كـان وصُـول السيد الأعلى المؤيد أبي حَفْص بن الخليفة أمير المؤمنين من غزوته من مرسية إلى إشبيلية بجميع عساكره، وتلقاه أخوه أميـر المؤمنين بن أمير المؤمنين رضي الله عن جميعهم على ميلين من إشبيليـة بتبريـز عظيم، وسُـرُورٍ جسِيم ودخلوا إشبيليـة خيـر دخـول، وحلوا بهـا أسعـد حلول، وانفـردا في السـلام والكـلام والرأي أياماً، واتفقا على الخير الذي نظم الأمر العزيز نظاماً، [319] وأسكنـا بـالتّصافي بينهمـا الأرواح والأجسامـا[1]، وعز مـا أن يكـون أمـرهمـا في النـظر لحماية جزيرة الأنـدلس الإسراج والإلجـاما. فـأول مـا نـظروا فيه تعجيـل ميرة كبيرة إلى بطليوس من القمح والشعير والآلات المعينات والأقـوات المقتوتـات على أربعـة آلاف بغل إليهـا في صحبة عسكـر مبارك من المـوحدين أنجـدهم الله، والعـرب يسيرون بـالميرة والمـرافق والمصـالح إلى بطليـوس المـذكـورة حمـاها الله فحضـر العسكر المبـارك عنـد الأمر العـزيـز إليهم، وجـازوا على القنـطرة المصنوعـة الموضـوعة على الـوادي إلى اطريـانة[2]، وذلـك في اليوم الثـالث من إكمـال عملهـا الثـامن من صفـر سنـة سبـع وستين وخمس مـائـة المؤرخة، وهـذا العسكر أول عسكر جاز عليها، فأوصل الميرة إليها على أوفى الأمن وأحياها، وخصهـا بالنـظر المتدارك عن الأمـر العزيـز وحياهـا، وانصرف بعد توصيل الميرة سالماً وغانماً ظـافراً، وذلـك أن أبـا العـلا بن عزون بنصحه للموحدين وحبه أمير المؤمنين حرَّضهم أن يجعلوا طريقهم على حصن لبيون[3]

(1) راجع التعليق رقم 4 ص 154.

(2) أطريانة أو طريانة (Triana) حاضرة من حواضر اشبيلية ينسب إليها الفقيه عبـد العزيـز الطريـاني والشاعر الأديب أبو عمران موسى الطرياني، وجاء في دليل بيديكر أن إليها ينسب الفخار الطرياني المشهور وكان يصنع بها أحسن الـزليج الأشبيـلي، ويوجـد إلى الآن زقاق بمـدينة فـاس يحمل اسم طريانة قرب المدرسة العنانية.

Baedeker: Espagne et portugal P. 441.

الحلل السندسية (أول) ص 219.

(3) حصن لبيون (Castillo de Lobon) يقع شرقي مدينة بطليوس قريباً منها، وقد سقط حرف البـاء